مُوهِم الاختلاف في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور
محمد السيد راضي جبريل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

أولًا : دواعي دراسة هذا الموضوع :

قد يمرُّ القارئ لكتاب الله تعالى بآياتٍ منه عند النَّظر إلى ظاهرها يَتَوهَّم أنَّ بينها وبين آياتٍ أخرى – وردت في نفس الموضوع – اختلافًا أو تعارضًا مما قد يُوقع البعض في اللَّبس، والأمرُ في حقيقته على خلاف ذلك، فالواقعُ أنَّ لهذه الآيات أوجهًا ومعاني تحمل عليها، فإذا هي بعد ذلك – في الفَهْمِ – مُتناسقةٌ متوافقةٌ ومتكاملةٌ، وما ظَنَّهُ النَّاظِرُ أولًا تعارضًا إنَّما هو وَهْمٌ لا حقيقة له .

ولذلك كانت تسميةُ العلماء لهذا المبحث – من مباحث علوم القرآن – تسميةً دقيقةً محررةً عندما أطلقوا عليه عنوان : « مُوهِمُ الاختلاف » فالتَّعارض هنا مُتَوهَّمٌ وليس حقيقةً؛ لأنَّك – بحمد الله تعالى – غيرُ واجدٍ أبدًا بين آياتِ كتاب الله تعالى تعارضًا حقيقيًا، ولكن لمَّا كان النَّاس متفاوتين في الفَهْم، ولا يَملك كلٌّ منهم القدرةَ العقليةَ على إزالة هذا التعارُض الظَّاهري وَفْقَ قواعدَ مقررةٍ – سنذكرُها ضِمنَ هذا الموضوع – ولمَّا كان الحرصُ علىَ صِحة وسلامةِ فَهْم كتاب الله تعالى واجبًا على العلماء في هذا الفَنِّ – أعني عُلومَ القرآن الكريم – كانت الحاجةُ ماسَّةً إلى دراسةِ هذا الموضوع دراسةً تُقَعَّدُ فيه أصولُ التَّعاملِ وقواعدُه في هذه الآيات الكريمة.

ثانيًا : المقصود بـ« مُوهِم الاختلاف » :

في بيان المقصود بـ«مُوهِم الاختلاف» قال السيوطي : « والمراد به ما يُوهِمُ التَّعارضَ بين الآيات، وكلامُه تعالى مُنزَّهٌ عن ذلك كما قال : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء : ٨٢) ولكنْ قد يَقعُ للمُبتدئ ما يُوهِمُ اختلافًا، وليس به في الحقيقة فاحْتِيجَ لإزالته، كما صُنِّفَ في مُختَلَف الحديث، وبيان الجمعِ بين الأحاديث المتعارضة »(١) .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٧٢٤ .

هذه الآية التي أوردها السيوطي – رحمه الله – في مَعرض تقريرِ نَفي الاختلاف عن القرآن الكريم فَصَّلَ الغزالي – رحمه الله تعالى – القولَ فيها فيما نَقله عنه الزركشي في «البرهان» فقد ذكر تحت عنوان «فائدة » ما نَصُّه : سُئل الغزالي عن معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فأجاب بما صورته : الاختلاف لفظٌ مُشتركٌ بين معانٍ، وليس المراد نفيَ اختلافِ النَّاس فيه، بل نفي الاختلاف عن ذاتِ القرآن، يقال : هذا كلامٌ مُختلِفٌ، أي لا يُشْبِه أَولُه آخرَه في الفصَّاحة، أو هو مختلِفٌ، أي: بعضُه يدعو إلى الدِّين، وبعضُه يدعو إلى الدنيا، أو هو مُختلفُ النَّظمِ فبعضُه على وزنِ الشِّعر وبعضُه مُنزحف [1].

وبعضُه عَلى أسلوب مخصوص في الجزالة، وبعضُه على أسلوبٍ يخالفه، وكلام الله تعالى منزه عن هذه الاختلافات، فإنَّه على منهاجٍ واحدٍ في النَّظمِ مناسبٌ أوَّلُه آخرَه، وعلى مرتبة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغثِّ والسَّمين، ومسوقٌ لمعنى واحدٍ، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى، وصرفهم عن الدنيا [2] إلى الدين، وكلام الآدميين يتطرَّق إليه هذه الاختلافات؛ إذ كلام الشعراء والمتراسلين إذا قيس عليه وُجد فيه اختلافٌ في منهاج النَّظم، ثم اختلاف في درجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغثِّ والسَّمين، فلا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان، بل تشتمل قصيدة على أبياتٍ فصيحة، وأبياتٍ سخيفة، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة؛ لأن الشعراء والفصحاء : ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾

(١) الزحاف على وزن كتاب : « هو في الشعر أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر » القاموس المحيط « زحف » باب : الفاء فصل الزاي ، وهو كما نبه ابن منظور في مادة « زحف » يجعل الشعر ثقيلًا .

(٢) لا ينبغي أن يفهم من كلام الغزالي – رحمه الله تعالى – أن القرآن يذم العمل الدنيوي الذي يهدف إلى إعمار الأرض وحيازة كنوزها ، بل على العكس من ذلك يدفع القرآن المؤمن ويحثه على السعي في جنبات الأرض واستخراج خيراتها ، فيقول الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك : ١٥) ويقرن عز وجل العبادة بالعمل ، فيقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة : ١٠) ولكن مقصود الغزالي – رحمه الله تعالى – نحسبه أنه يهدف إلى أن القرآن يصرف الناس عن الانغماس في الدنيا انغماسا لا يرون فيه غيرها حتى تستعبدهم عندما تفتح عليهم فيتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم فتهلكهم كما أهلكتهم .

(الشعراء: ٢٢٥) . فتارة يمدحون الدنيا، وتارة يذمونها، وتارة يمدحون الجبن فيسمونه حزمًا، وتارة يذمونه ويسمونه ضعفًا، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صراحة، وتارة يذمونها ويسمونها تهورًا، ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات : اختلاف الأغراض، واختلاف الأحوال، والإنسان تختلف أحواله، فتساعده الفصاحة على انبساط الطبع وفرحه، ويتعذر عليه عند الانقباض.

ولذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة، ويميل عنه أخرى، فيوجب اختلاف الأحوال والأغراض اختلافًا في كلامه بالضرورة، فلا تصادف اللسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة، وهي مدة نزول القرآن، فيتكلم على غرض واحد، وعلى منهج واحد، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرًا تختلف أحواله، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجد فيه اختلاف كثير فأما اختلاف الناس فهو تباين في آراء الناس لا في نفس القرآن »[1].

ومقالة الغزالي هذه تحتاج منا إلى تعليق يتناول بعض ما ورد فيها بالإيضاح، ونحن نسوق هذا التعليق على النحو التالي :

١ – أن الآية الكريمة : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ المراد منها نفي الاختلاف عن ذات القرآن، فالقرآن مَن هذه الجهة قد سلم من كل وجوه الخلاف التي تعيب الكلام كما فسرها الغزالي في حديثه، وذلك لا يعني نفي اختلاف الناس فيه، فقد وقع الاختلاف حوله، وكان الكفار أكثر من وقع في هذا وتخبطوا فيه تخبطًا كشف عن حيرتهم وضلالهم : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: ٥) .

٢ – أنَّ الاختلاف المنفي عن القرآن في الآية هو اختلاف التناقض لا اختلاف التَّنوع، وقد أكدَّ على ذلك السيوطي – رحمه الله تعالى – فيما نقله عن الكرماني عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) « قال : اختلافُ تناقضٍ وهو ما يدعو فيهَ أحد الشيئين إلى خلاف الآخر، وهذا هو الممتنع على القرآن . واختلافُ تلازمٍ وهو ما يوافق الجانبين كاختلاف وجوه

(١) البرهان في علوم القرآن – بدر الدين الزركشي ٢/ ٥٤– ٥٦ .

القراءة، واختلاف مقادير السور والآيات واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ والأمر والنهي والوعد والوعيد » انتهي كلام الكرماني الذي نقله عنه السيوطي [١] .

٣- أنَّ الغزالي – رحمه الله تعالى – جعل من هذه الآية دليلًا من أدلة إعجاز القرآن الكريم وكونه وحيًا من عند الله تعالى، فقد نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة مفرقًا على حسب الحوادث والملابسات، ومع ذلك فقد بلغ غاية الكمال من حيث فصاحته وبلاغته وترابطه وإحكامه وخُلوّه التام من أي خلاف يُعاب به الكلام مما يدل على أنه كلام رب العالمين ؛ إذ لو كان من كلام البشر لما سلم من كل ما سبق أو من بعضه : جاء ذلك في عبارته التي قال فيها : « ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تختلف أحواله، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجد فيه اختلاف كثير » .

تنبيه: في فهم وصف الاختلاف بالكثرة في قوله: ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾: المقصود في هذا التنبيه أن نلفت النظر إلى أمرين:

الأمر الأول: بيان معنى كثرة الاختلاف المنفية عن القرآن مما يكون في الكلام لو كان من البشر.

الأمر الثاني: هل لوصف الاختلاف بالكثرة مفهوم مخالفة أو لا ؟

أمَّا الأمر الأول: وهو بيان معنى كثرة الاختلاف المنفية عن القرآن مما يكون في الكلام لو كان من البشر.

فقد توسع العلماء توسعًا محمودًا في بيان ما يتناوله معنى الكثرة في قوله:

﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ فلم يحصروه في نفي تناقض الآيات بعضها مع بعض فحسب، إنَّما تجاوزوا ذلك إلى نفي أي اختلاف يورث تناقض القرآن مع واقع العرب عندما نزل عليهم، ولا فيما أخبرهم به من قضايا الإعجاز في الأخبار ونحوها إلى سائر صور الاختلاف الذي به يعاب الكلام، ولا غرو فهو كلام رب العالمين سبحانه .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة – رحمه الله تعالى: « فالقرآن الكريم يحمل بين جنباته دلائل صدقه، وبراهين أنه من لدن حكيم حميد ؛ إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضًا في القضايا، واختلافًا في الألفاظ، وتضاربًا في المعاني، ولضربت الآيات

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٧٣٥ .

بعضها بعضًا ؛ لأن الإنسان من البشر إذا تكلم بكلام كثير لا بد أنْ يوجد في كلامه اختلاف، لاختلاف مزاجه بين الحين والحين، ولما يَعْتَوِرُهُ من الصحة والمرض، ولاختلاف مواقفه في الزمان والمكان، فيظهر ذلك كله في صورة تناقض في اللفظ أو الوصف، أو في المعاني، أو الصدق والكذب إلى غير ذلك من صور الاختلاف .

ولكنَّ القرآن الكريم بين أيديهم، فليتدبروه حقَّ التدبر، فلن يجدوا اختلافًا في وصف، ولا ردًّا في معنى، ولا تناقضًا في قضاياه، ولا كذبًا فيما يخبر به من أمور الغيب، ولكن بإعراضهم عن التدبر يظلون كالأنعام بل هم أضل قد أغلقوا قلوبهم عن الهدى، وأصمُّوا آذانهم عن صوت البشير النذير »[1] .

وأمَّا الأمر الثاني: وهو ما يتعلق بمفهوم المخالفة:

فمعناه : أنَّه لو كان القرآن من عند غير الله – أي من البشر – لكان فيه اختلاف كثير، فهل معنى ذلك أنَّه ما دام من عند الله سبحانه يكون فيه اختلاف، ولكن ليس كثيرًا، بل اختلافٌ قليل ؟

وهنا نقول : المقطوع به أنه ليس لهذا الوصف مفهوم مخالفة[2] فالاختلاف منفي عن القرآن جملة وتفصيلًا بالمعنى الذي ذكرناه، فليس فيه اختلاف يعيبه على الإطلاق لا من قبيل الكثرة ولا من قبيل القلة، والسؤال الذي يترتب على ذلك هو: إذن فما معنى الكثرة في الوصف، وهلَّا جاء مثلًا : أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوه مختلفًا أو متناقضًا ؟

والجواب هنا : أنّ هذا الوصف إنما هو قيد لبيان الواقع : واقع الاختلاف عندما يكون الكلام للبشر فهو ليس مجرد اختلاف ولكنه اختلاف كثير؛ ليظهر الفرق جليًا بين كلام رب العزة الذي لا تشوبه شائبة اختلاف من أي نوع في مجال التناقض أو التضارب وبين كلام البشر الذي يكثر فيه الخطأ واللبس والتضارب ونحو ذلك، وهذا على غرار ما جاء في قوله الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...﴾ (الأعراف : ٣٣) فوصف البغي في الآية بأنه

---

(١) زهرة التفاسير – للشيخ أبو زهرة ٤/ ١٧٨١ .

(٢) هنا : قد يقول البعض : كل منطوق وله مفهوم واقعٌ أو متصَورٌ ، وأنه يمكن أن يصاغ للآية مفهوم مخالفة – كما سبق – ونقول في الرد على ذلك : إنه عندئذ يكون بلا شك مفهومًا باطلًا ، فوجوده عندئذ هو والعدم سواء.

بغير الحق لا يعني أنَّ هناك بغيًا بحق، وكذلك ما جاء في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمران : ٢١) فَوصْفُ قتل النبيين بكونه بغير حق لا يعني أنَّ ثمة قتلًا للنبيين بحق، ولكن الوصف في الموضعين وأشباههما قيدٌ لبيان الواقع، أي: لإظهار شناعة البغي، وكذلك شناعة قتل النبيين، وأنَّ كلًا منهما لا يكون إلا ظلمًا وتعديًا وجورًا لا يشوبه عدل أو صواب أو حق فيرتدع من تُسوِّل له نفسه البغي أو الجور .

ثالثا: أصل ما ورد في موهم الاختلاف:

يقرر العلماء أنَّ أصل ما جاء في هذا الباب ما أورده البخاري في صحيحه، قال : قال المنهال عن سعيد [١] قال: قال رجلٌ لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف على قال : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون :١٠١) مع : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (الصافات : ٢٧) وقال: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء :٤٢) وقال : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٣) فقد كتموا في هذه الآية، وقال : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (النازعات: ٢٧-٣٠) فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت : ٩-١١) فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ عزيزًا – حكيمًا – سميعًا – بصيرًا، فكأنه كان ثم مضى . فقال [٢]: ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور، فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ثم في النفخة الآخرة ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾، وأما قوله: ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ مع قوله : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ ﴾ فإنَّ الله يغفر لأهل

---

(١) المنهال : هو ابن عمرو الأسدي ، وسعيد : هو ابن جبير صرح بذلك ابن حجر في الفتح : ٨/ ٥٥٧ .

(٢) أي ابن عباس يجيب من سأله.

الإخلاص ذنوبهم – يريد أهل الإيمان – وقال المشركون – أي لَمَّا رأوا ذلك – تعالوا نقول : لم نكن مشركين فختم على أفواههم فتنطق أيديهم [١]، فعند ذلك عُرِف أن الله لا يُكْتَمُ حديثًا وعنده ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين ثم دَحَا الأرض، وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله :

﴿ دَحَاهَا ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فجُعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين .

﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ سَمَّى نفسَه ذلك وذلك قولُهُ، أي: لم يزل كذلك، فإنَّ الله لم يُرد شيئًا إلَّا أصاب به الذي أراد، فلا يختلف عليك القرآن، فإنَّ كُلًّا من عند الله » انتهي ما أورده البخاري، قال حَدَّثَنِيه يوسف بن عَدِيٍّ، حَدَّثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبى أُنَيْسَة عن المِنهال بهذا [٢] .

وإذا كانت رواية البخاري – رحمه الله تعالى – لم تصرح باسم الرجل الذي سأل عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– عن الآيات السابقة فإنَّ الطبري – رحمه الله تعالى – قد صرَّح باسم الرجل وعَيَّنه في رواية له عن ابن عباس، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثًا ﴾ .

فقد روي بسنده – رحمه الله – عن الضَّحاك أنَّ نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال : يا ابن عباس، قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثًا ﴾ وقوله: ﴿ وَاللهَّ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾، قال : فيختم على أفواههم، ويستنطق جوارحهم، فتَشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثًا » [٣] .

---

(١) يشير بذلك إلى ما جاء في قول الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (يس :٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ك : التفسير ، ب : ٤١ سورة حم السجدة ٨/ ٥٥٥ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – لابن جرير الطبري ٨/ ٣٧٥.

ورواية الطبري وإن كانت مختصرة لم تفصل كما ورد في رواية البخاري إلا أنها كما بَيَّنتُ صَرَّحت بأنَّ السائل هو نافع بن الأزرق وهو من الخوارج، وإليه يُنسب الأزارقة من فِرقهم .

وقد تضمنت رواية ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري – رحمه الله تعالى – صورًا تَوَهَّم فيها السائل اختلافًا أو تناقضًا، فأجابه ببيان ما أُريد بكل موضع، وقد وضح ابنُ حَجر العسقلاني – رحمه الله تعالى – في الفتح عند شرحه للحديث الأسئلة وأجوبتها، فقال : وحاصل ما وقع السؤال في حديث الباب أربعة مواضع:

الأول: نفي المساءلة يوم القيامة وإثباتها، الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه، الثالث: خلق السماوات والأرض أيُّهما تقدَّم، الرابع: الإتيان بحرف « كان » الدَّال على الماضي مع أنَّ الصفة لازمة.

وحاصل جواب ابن عباس عن الأول: أنَّ نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية وإثباتها فيما بعد ذلك، وعن الثاني: أنَّهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وجوارحهم، وعن الثالث: أنَّه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة؛ ثم خلق السماء فسواها في يومين، ثم دَحَا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض، فهذا الذي جمع به ابن عباس بين قوله تعالى في هذه الآية وبين قوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ هو المعتمد ... وعن الرابع: بأنَّ « كان » وإنْ كانت للماضي لكنها لا تستلزم الانقطاع ؛ بل المراد أنَّه لم يزل كذلك .

فأمَّا الأول: فقد جاء فيه تفسير آخر أنَّ نفي المساءلة عند تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط وإثباتها فيما عدا ذلك، وهذا منقول عن السدي أخرجه الطبري، ومن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن نفي المساءلة عند النفخة الأولى وإثباتها بعد النفخة الثانية، وقد تأول ابن مسعود نفي المساءلة على معنى آخر وهو طلب بعضهم من بعض العفو، فأخرج الطبري من طريق زاذان قال أتيت ابن مسعود فقال : يؤخذ بيد العبد يوم القيامة فينادى : ألا إن هذا فلان ابن فلان، فمن كان له حَقٌّ قِبَلَه فليأت، قال فتودُّ المرأة يومئذ أن يثبت لها حَقٌّ على أبيها أو ابنها أو أخيها أو زوجها، ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ ومن طريق أخرى قال: لا يسأل أحد يومئذ بنسب شيئًا ولا يتساءلون به ولا يمت برحم، وأما الثاني : فقد تقدم بسطه من وجه آخر عند الطبري، والآية الأخرى التي ذكرها ابن عباس وهي قوله : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فقد ورد ما يؤيده من حديث أبي هريرة

عند مسلم[١] أثناء حديث وفيه « ثم يلقى الثالث فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك ويثنى ما استطاع، فيقول : الآن نبعث شاهدًا عليك، فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ؟ فيُختم على فِيه، وتنطق جوارحه ».

وأما الثالث : فأجيب بأجوبة أيضًا منها أن « ثم » [٢] بمعنى «الواو» فلا إيراد – أي فلا إشكال – وقيل:المراد ترتيب الخبر لا المخبَر به كقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (البلد : ١٧)، وقيل: على بابها لكن « ثم » لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في الزمان، وقيل : خلق بمعنى قدر، وأما الرابع وجواب ابن عباس عنه، فيحتمل كلامه أنه أراد أنه سمى نفسه غفورًا رحيمًا، وهذه التسمية مَضَت لأنَّ التَّعلق انقضى، وأما الصفتان فلا يزالان كذلك لا ينقطعان ؛ لأنَّه تعالى إذا أراد المغفرة أو الرحمة في الحال أو الاستقبال وقع مراده، قاله الكرماني » [٣]. انتهي كلام ابن حجر – رحمه الله تعالى – في شرح جواب ابن عباس رضي الله عنهما على من سأله عن تلك الآيات، وهذا أصلُ ما ورد في تَوَهُّم الاختلاف في بعض آيات القرآن على ما فهمه البعض منها، والحقيقة بخلاف هذا التَّوهُّم كما بَيَّنَ حَبْرُ الأُمَّة وعالمها عبد الله بن عباس وغيره من العلماء .

رابعًا : أسباب ما يُوهم الاختلاف في القرآن :

تتبَّع العلماء ما أوهم ظاهره اختلافًا أو تناقضًا بين بعض آيات القرآن فوجدوا لذلك أسبابًا عدة ذكروها مع عدد من مواضعها في القرآن الكريم، وبينوا كيفية إزالة هذا التعارض المتوهم، وقد أجملوا ذلك كله فيما يلي :

١ـ وقوع ما أخبر عنه في الآيات على أحوال مختلفة

ومنه ما جاء في موضوع خلق آدم عليه السلام فقد ورد في بعض الآيات أنه خلق من تراب : وذلك في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِّ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران : ٥٩) وفي بعضها : أنه خلق من صلصال من حمأ مسنون : وذلك في قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٨-٢٩) وفي بعضها : أنه خلق من طين لازب، وذلك في قوله عز وجل :

---

(١)أخرجه مسلم ك: الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٩ (٢٩٦٨/ ١٦) .

(٢) يعني في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... ﴾ الآية ١١ من سورة فصلت، وهي من المسائل التي وردت في حديث ابن عباس كما هو مبين .

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني : ٨/ ٥٥٨ .

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (الصافات : ١١) .

وفي بعضها : أنه خلق من صلصال كالفَخَّار : وذلك في قوله سبحانه : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن : ١٤) فما ورد من الآيات حول المادة التي خلق منها آدم عليه السلام يوهم في ظاهره اختلافًا بين كونه خلق من تراب أو من طين أو من صلصال، أو من حمأ مسنون، والحقيقة أنه لا اختلاف ألبته، وإنما أصل الخلق من تراب تقلب في مراحل بعد اختلاطه بالماء فصار طينًا وحمأ مسنونًا وصلصالًا كالفخار ثم كانت التسوية والنفخ فيه من روح الله تعالى فإذا هو بَشَرٌ سَوِيٌّ، فالألفاظ وإن كانت مختلفة، إلا أن معانيها تحققت في أحوال مختلفة؛ لأنَّ الصلصال غير الحَمأ، والحَمأ غير التراب، إلا أنَّ مرجعها كلّها إلى جوهرٍ واحدٍ وهو التراب، ومنه تدرجت هذه الأحوال.

ومن هذا الباب أيضًا ما جاء في عصا موسى عليه السلام، فبعض الآيات أخبرت أنه ألقي هذه العصا فتحولت إلى ثعبان : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (الأعراف : ١٠٧) وبعض الآيات أخبرت أنه ألقاها فتحولت إلى جَانّ :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (القصص : ٣١) .

ولَمَّا كان الثعبان هو : الكبير من الحيَّات، والجَانُّ هو : الصغير منها، فقد فَسَّرَ العلماء الأمر بأنَّ العصا كانت في خِلقتها ثعبانًا عظيمًا، وكانت في سرعتها وحركتها واهتزازها كهيئة الجَانِّ وخِفته [1]وهذا التوجيه من الدقة بمكان، كونه يعتمد على ألفاظ الآيات، ففي حالة كون العصا ثعبانًا لم يعبر بما يفيد التشبيه، بل بما ينبئ عن الواقع : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وفي حالة كونها جَانًّا جاء ذلك على سبيل التشبيه ﴿ كأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ وبالتدبر في مواضع هذه الآيات هداني الله إلى وجه آخر في دفع هذا التَوهُّم للاختلاف، يقوم على مُراعاة اختلاف مواطن الوقوع، وبيان ذلك: أنَّ موسي عليه السلام لَمَّا ألقي عصاه أَوَّلًا – في جملة التمهيد للرِّسالة بعد أن نُودي من الشجرة المباركة – رآها تهتز كأنها جَانٌّ فولَّي مدبرًا، فهذا أَوَّلًا، أَمَّا الموطن الثاني : فإنه لَمَّا ذهب إلى فرعون رسولًا، وطالبه هذا الأخيرُ بآية تَدلُّ على صِدقه ألقى العصا فإذا هي ثعبان

(١) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ٢/ ٦٤.

مبين وحَيَّةٌ عظيمة في مواجهة السَّحرة، تلقف ما ألقوه من الحبال والعصي والتي خُيِّل للنَّاس أنَّها ثعابين وحيَّاتٌ .

٢ـ اختلاف الموضوع:

ومنه ما جاء في موضوع سؤال الخلق يوم القيامة، فقد ثبت هذا السؤال في آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات : ٢٤) ونفي في آيات، منها قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن : ٣٩) .

والحق أنه لا إشكال في الآيات ولا اختلاف يتأتي من النفي والإثبات للسؤال، وفي بيان ذلك نقل الزركشي عن الحليمي قوله : « فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، وحمله غيره على اختلاف الأماكن، لأن في القيامة مواقف كثيرة، فموضع يسأل ويناقش، وموضع آخر يرحم ويلطف به، وموضع آخر يعنف ويوبخ – وهم الكفار – وموضع آخر لا يعنف وهم المؤمنون »[1].

٣ـ الاختلاف في جهتي الفعل:

ومنه ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال : ١٧) .

فقد نَسبت الآية قتل الكفار إلى المؤمنين وفي نفس الوقت نَفَتْه عنهم، كما نَسبت رمي المشركين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي نفس الوقت نَفَته عنه ؛ لأنَّ المعني في جانب القتل هو: فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم ولكنَّ الله قتلهم، بقرينة ما بعدها ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .

وهذا تعارضٌ مُتوهَّمٌ بين النَّفي والإثبات، ولكن تدبر الآية في سياقها الذي وردت فيه يكشف أنه لا إشكال فيها ولا اختلاف، فالآية كما قرَّر المفسرون جاءت في غزوة «بدر» التي نزلت سورة الأنفال في شأنها.

والمعنى : أيها المؤمنون لم تقتلوا الكفار في «بدر» بمجرد قوتكم، ولكن مع أنكم باشرتم قتلهم فإنَّما تَمَّ لكم ذلك بقدرة الله تعالى لا بقدرتكم، فالمؤثر على الحقيقية هو الله تعالى، كما قال سبحانه : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا

(١) المرجع السابق ٢/ ٦٥.

الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (آل عمران : ١٦٠)، وكذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لَّما رمى الكفار بالحصباء في بدر فأصابت أعينهم جميعًا لم يكن ذلك بقدرته -صلى الله عليه وسلم- مع أنه هو الذي باشر الرمي، ولكن كان بقدرة الله تعالى، فالقتل المنسوب إلى المؤمنين هو مباشرة العمل، والقتل المنفي عنهم هو تأثير هذه المباشرة، والرمي المنسوب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- هو مباشرة الفعل، والرمي المنفي عنه هو تأثير هذا الفعل .

قال ابن جرير – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية الكريمة : « يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، ممن شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاتل أعداء دينه معه من كفار قريش : فلم تقتلوا المشركين، أيها المؤمنون، أنتم، ولكن الله قتلهم، وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، إذ كان جل ثناؤه هو مسبب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم . ففي ذلك أدل الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صنع به وصلوا إليها، وكذلك قوله لنبيه عليه السلام : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾، فأضاف الرمي إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي، إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرمي به إلى الذين رموا به من المشركين، والمسبب الرمية لرسوله، فيقال للمنكرين ما ذكرنا قد علمتم إضافة الله رمي نبيه صلى الله عليه وسلم المشركين إلى نفسه، بعد وصفه نبيه به، وإضافته إليه، وذلك فعل واحد، كان من الله تسبيبه وتسديده، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحذف والإرسال »[1].

٤- الاختلاف في الحقيقة والمجاز :

ومنه ما جاء في بيان آثار أهوال الساعة على الناس، وذلك في قوله تعالى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج :٢) .

فقد أثبت لهم السكر ونفاه عنهم في نفس الآية، والحق أنه لا تناقض بالنفي والإثبات الوارد في الآية، فإثبات السكر في الآية هو من باب المجاز أي يراهم الناظر إليهم – في هذا الهول – سكارى يترنحون من شدة الفزع والخوف كما يترنح السكارى، وما هم بسكارى حقيقة من خمر شربوها أو مسكر تجرعوه .

---

(١)جامع البيان عن تأويل آي القرآن – الطبري ١٣/ ٤٤٢ .

قال الرازي – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية : « المعنى : وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم، وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب »[1] .

٥ـ الاختلاف بوجهين واعتبارين :

وهذا النوع جامع للمتفرق في إزالة اللَّبس فيما يوهم التَّعارض، ولعلَّ أدلَّ ما جاء على ذلك في هذا الباب هو قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ (الأنفال :٢) . مع قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد : ٢٨) .

فقد وردَ من آثار ذكر الله عند المؤمن الخوف والوجل من ناحية والطمأنينة والسكينة من ناحية أخرى وهما في الظاهر أثران متناقضان لمؤثر واحد.

والواقع أنَّه لا تناقض ولا اختلاف، وإنَّما جاء كل من الأثرين باعتبار يوصل إليه، فالخوف إنما يكون عند ذكر الله تعالى بصفات قدرته وجبروته وشدة عقابه، والطمأنينة إنَّما تكون عند ذكر الله تعالى بصفات رحمته ومغفرته وعفوه، هذا وجه

ويمكن أن نقول : إن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ، والذهاب عن الهدى، فتوجل القلوب لذلك .

وقد ذهب البعض إلى أن الوجل والطمأنينة مرحلتان متعاقبتان تترتب الثانية منهما على الأولى فعند ذكر الله تعالى يكون الخوف والوجل مما وقع من المعاصي التي لا يخلو من فعلها أحد، وكذلك التقصير في الطاعات فيبعث هذا الخوف على الاجتهاد في الطاعة، والابتعاد عن المعاصي، والأمل في عفو الله بالتوبة، فتكون الطمأنينة نتيجة لذلك، ركونًا إلى رحمة الله، لا جُرأة وثقة بالنجاة مع الإقامة على المعصية .

ولعلَّ مما يُصوِّب هذا التوجيه ما جاء من الجمع بين الوَجَل والطَّمأنينة في آيةٍ واحدةٍ، هي قول الله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ... ﴾ (الزمر :٢٣) .

---

(١)مفاتيح الغيب – لفخر الدين الرازي – مجلد ٢-٢٣ صـ٥ .

قال الشيخ الطاهر بن عاشور – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية : « فإن المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربه ويتجنب ما حذر منه فيقشعر جلده، فإذا عقب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرح، وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وانقلب الوَجَل والخوف رجاءً وترقبًا، فذلك معنى لين القلوب »[١] .

خامسًا: قاعدة في التعامل مع ما يوهم التعارض في القرآن الكريم:

نقل السيوطي – رحمه الله تعالى – عن أبي إسحاق الإسفراييني ما يمكن أن نعده قاعدة يُنطلق منها في التعامل مع ما يُوهم التعارض في القرآن الكريم بما تضمنته من الترتيب أو الجمع أو القول بالنسخ ونحو ذلك، قال رحمه الله : « قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: « إذا تعارضت الآي وتعذر فيها الترتيب والجمع طلب التاريخ، وترك المتقدم بالمتأخر ويكون ذلك نسخًا، وإنْ لم يعلم وكان الإجماع على العمل بإحدى الآيتين علم بإجماعهم أنَّ الناسخ- من الآيتين- ما أجمعوا على العمل بها . قال : ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عن هذين الوصفين » انتهي كلام الإسفراييني، قال غيره : وتعارض القراءتين بمنزلة تعارض الآيتين نحو:

﴿ وأرجلكم﴾[٢] بالنَّصب والجَرِّ، ولهذا جمع بينهابحمل النصب على الغسل – أي: غسل الرجلين ؛لأنها معطوفة على ﴿وجوهكم ﴾ – والجرِّ على مسح الخُفِّ – لأنَّها معطوفة على﴿رؤوسكم﴾.

وقال الصيرفي : جماع الاختلاف والتناقض أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه – فليس فيه تناقض، وإنما التناقض في اللفظ ما ضاده في كل جهة، ولا يوجد في الكتاب والسنة شيء من ذلك أبدا، وإنما يوجد فيه النسخ في وقتين » انتهي ما نقله السيوطي رحمه الله[٣]، ومفاد ما قاله الصيرفي : أن كل كلام يمكن إضافة ما يظن فيه التناقض إلى أوجه مختلفة يكون كل من الطرفين على محمل غير ما عليه الآخر، وهو ما يسمى بانفكاك الجهة فليس فيه تناقض .

---

(١) التحرير والتنوير – للشيخ محمد الطاهر بن عاشور – مجلد ١١ج – ٢٣ – صـ٣٨٩.

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (المائدة : ٦) .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٧٣٤.

سادسًا : عرضُ لِطائفة من الآيات التي يُوهمهم ظاهرها الاختلاف، والحقُّ أنَّه لا اختلاف ولا تعارض:

هذه جملة من الآيات التي يوهمهم ظاهرها الاختلاف، والحق بخلاف ذلك، فلا تعارض ولا تناقض ألبتة كما سنبين في عرضها، وقد قصدت من وراء إيرادها إلى أمرين:

الأول: أنْ يُوقن القارئ يقين الاطمئنان إلى ما سبق أنْ قرَّرناه من عدم وجود التناقض بين آيات القرآن في أي موضع فيه.

وأما الثاني: فهو أن يَتمرَّس على كيفية التعامل مع نظائر هذه الآيات في إزالة هذا التوهم وفق القاعدة التي سقناها منذ قليل، والتي يَرد لها تطبيق عملي في هذه الآيات، وقد راعينا في اختيارها أنْ تكون في مواضعِ مختلفة من القرآن مِنْ أوله إلى آخره، نسأل الله التَّوفيق والسداد في عرضها وفي بيان التوجيه فيها:

١ – قول الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة : ٤٧) قد يُوهم التَّعارض مع قوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾ (آل عمران:١١٠) وذلك أنَّ الآية الأولى تَنصُّ على تفضيل بني إسرائيل على العالمين، بينما تَنصُّ الآية الثانية على تفضيل هذه الأمة على من سواها من الأُمم بجعلها خير أمة أخرجت للناس.

والحقُّ أن لا تعارض بين الآيتين لاختلاف جهة التفضيل، فقد قرر العلماء أن تفضيل بني إسرائيل هو تفضيل خاص على عالمي زمانهم فحسب وليس كل الأزمان، وأما هذه الأمة فخيريِّتها وتفضيلها بحيثياتها التي وردت في الآية على كل الأزمان، وقد استند المفسرون في ذلك إلى حقيقتين :

الأولى : ما ورد في السنة من أحاديث تصرح بأن هذه الأمة هي الأفضل بإطلاق، فقد أخرج الترمذي في سننه [1] بإسنادٍ حسنٍ عن بَهْز بن حَكيم عن أبيه عن جَدِّه أنَّه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال :« إنَّكم تُتمُّون سَبْعين أُمَّةً أَنْتُم خَيْرُهَا وأَكْرَمُهَا على الله» .

(١) الترمذي: ك : تفسير القرآن ، ب : ومن سورة آل عمران ٥/ ٢١١(٣٠٠١) . وقال : هذا حديث حسن .

ورواه أحمد ولفظه : « أنتُم تُوفُون سَبْعين أُمَّةً أَنتُم آخرها وأَكْرَمُها على الله »[1].

الحقيقة الثانية التي استند إليها المفسرون في هذا التوجيه: أنَّ الله تعالى جعل المقتصد في عمله في بني إسرائيل أعلاهم منزلة، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة :٦٦) .

وأمَّا هذه الأمة ففيها درجة أعلى من هذه الدرجة وهي درجة السَّبْق: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر: ٣٢).

٢- قول الله تعالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة : ١٩٤) قد يُوهم التعارض مع قوله سبحانه : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت :٣٤) .

وذلك أن الآية الأولى تنص على طلب الانتقام من المعتدي، والآية الثانية تنص على طلب الدَّفع بالتي هي أحسن في مقابل الإساءة والتعدي .

والواقع أنه لا تعارض بين الآيتين بأي وجه، فإنَّ الآية الأولى أتاحت للمعتَدي عليه أنْ يرد العدوان وبيَّنت مشروعيةَ انتقامه لنفسه وذلك هو العدل الذي هوجوهر الإسلام، أمَّا الآية الثانية فقد أرشدت إلى فضل العفو ودوره في تأليف القلوب، كما جاء في بقية الآية : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وتلك درجة الفضل، وقد جمع بين الأمرين بغرضيهما، وذلك في قول الله تعالى:﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل :١٢٦) .

وكذلك في وقوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (الشورى : ٤٠) .

٣- قول الله سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ... ﴾ (آل عمران : ٤٩) قد يوهم التعارض مع قول الله سبحانه : ﴿ذَلِكُمُ

(١) أخرجه أحمد : ٥/ ٣(٢٠٠٢٥) ، وقال المحقق : إسناده حسن .

اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام : ١٠٢) .

ذلك أن الآية الأولى تُثبت لعيسى عليه السلام نوعًا من الخلق ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ وأما الآية الثانية فتثبت أن الخلق كله لله تعالى مما ينفيه كلية عن غيره سبحانه من مخلوقاته .

وليس ثمة تعارضٌ في الحقيقة، فتدبُّر الآيتين يكشف عن كون المراد من الآية الأولى ليس الخلق بمعنى الإنشاء والإيجاد من العدم، وإنَّما المراد أن عيسى عليه السلام في آية من الآيات التي أجراها الله تعالى على يديه – أخذ شيئًا من الطِّين فصَوَّرَه على هيئة الطَّير، ثم نفخ فيه فتحرَّك وطار طيرًا حقيقيًا بإذن الله تعالى، وأمَّا خَلْقُ الله تعالى فهو الإنشاء من عَدَمٍ على غير مثال، والمتأمل في الآية يجد أنَّ عيسى عليه السلام ما نسب إلى نفسه إلا الخَلْق بمعنى التصوير والتشكيل لمادة الطين، وذلك في المتناول، فلمَّا تعلق الأمر بحركة الطير المترتبة على الخَلْقِ الحقيقي نَسب الأمر إلى الله تعالى فقال : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

أمَّا الآية الثانية فتثبت لله تعَالى أنَّه الخالق الحقيقي والمتفرد بكل شيء على معنى الإيجاد من عدم والإنشاء على غير مثال سابق، وبَعْثِ الرُّوح المحركة للمخلوق من العدم، وذلك ليس إلا لله سبحانه وتعالى .

٤ – قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء :٣) قد يُوهم التعارض مع قوله سبحانه : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء: ١٢٩) .

ذلك أنَّ الآية الأولى تدلُّ بظاهرها على أنَّ عدل الأزواج بين الزوجات أمْرٌ ممكن؛ لأنَّ الخوف من عدم العدل لا يكون إلا مع إمكانه، وإلا لم يكن لهذا الشَّرْط من معنى، وأمَّا الآية الثانية فتنفي إمكان العدل بينهن مهما حرص الإنسان على تحقيقه.

والحقيقة أنه لا تعارض بين الآيتين، فالعدل الممكن هو ما يكون في طاقة الزوج في مجال القسمة في المبيت والنفقة وكل ما كان من هذا القبيل، أمَّا العدل المستحيل فهو ما لا طاقة للإنسان به، ولا يقع في مجال قدرته، وهو العدل في المشاعر التي مبعثها القلب، فالميل القلبي إلى إحدى الزوجات أكثر من الأخريات معفو عنه؛ لأنه ليس في

مقدور الإنسان ما لم يترتب عليه جور فيما يمكن العدل فيه من الأمور المادية، فالجهة منفكة، هذا في مجال، وذاك في مجال آخر .

على هذا نص الحديث الشريف : فقد أخرج أبو داود [١] عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ فيَعْدِلُ [٢] ويقول : « اللهم هذا قَسْمِي فيما أملِكُ فلا تَلُمْنِي فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ » . يعني: القلبَ .

تنبيه :

قد جهل البعض فعلًا، أو تجاهلوا عمدًا هذا الفرق بين الموضعين فراحوا يروجون أن الإسلام في تشريعه علَّق تَعدُّدَ الزوجات على مستحيل : فقد أمر بالاقتصار على واحدة إذا خاف ألا يعدل، وبيَّن أنَّه لا يستطيع العدل مع الحرص عليه، ومن ثَمَّ هاجموا من يقول بالتعدد الذي شرعه الله تعالى، والحق أنه لا عذر لأحد في ذلك فالجاهل يسأل ويتعلم ولا يفتي بغير علم، والمتعمد محجوج بالقرآن والسنة كما سبق بيانه [٣].

٥- قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (الأنعام : ٦٢) قد يُوهم التعارض مع قول سبحانه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ

---

(١) أخرجه أبو داود : ك : النكاح ، ب : في القسم بين النساء ٢/ ٢٤٢ (٢١٣٤) ، والترمذي : ك النكاح ب : ما جاء في التسوية بين الضرائر ٣/ ٤٤٦ (١١٤٠) ، وقال : حديث عائشة هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم . ورواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب عن أبى قلابة مرسلا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم . وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة ، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٨٧ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٢) أي فيما يمكن العدل فيه من المبيت والنفقة وما يلحق بهما ، لا في الميل القلبي الذي كان يتجه أكثر إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٣) ونزيد الأمر في هذا المسألة بيانًا فنقول : لو كان الأمر كما يقول هؤلاء من تعليق التعدد على مستحيل لكان ذلك عبثًا يتنزه تعالى عنه فكيف يبيح شيئًا – وهو التعدد – بل يمتنُّ به وهو لا سبيل إلى تحقيقه في = = الواقع ، ثُمَّ لو كان الأمر كما يقولون فما الذي كان يحول دون تحريم التعدد من أول الأمر تحريمًا جازمًا بلفظ صريح شيئًا يتناسب مع أسلوب التشريع في الحلال والحرام ، والله تعالى يفعل ما يشاء . اهـ .

مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (سورة محمد صلى الله عليه وسلم : ١١).

ذلك أنَّ الآية الأولى تثبت أن الله تعالى مولى الكافرين ؛ فقوله تعالى ﴿ رُدُّوا﴾ يعود ضمير الجمع فيه إلى « أَحَدَ » في قوله في الآية السابقة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ وهو يشمل المؤمن والكافر، وأما الآية الثانية فتنفي أن يكون الله تعالى مولى للكافرين، بل هو مولى للذين آمنوا دون الكافرين .

والحقيقة أنه لا يوجد بين الآيتين أي تعارض إذا راعينا تفسير الولاية في كل جانب، فكون الله تعالى مولى للكافرين معناه أنه المالك لهم، المتصرف في شؤونهم القاضي فيهم بأمره ما شاء المهيمن عليهم، بحيث لا يخرجون عن قدرته وتدبيره، وأما كونه تعالى مولى للمؤمنين، فهي ولاية النصرة والمحبة والتوفيق، وأما الكفار فلا ولاية لهم من الله تعالى بهذا المعنى، بل هم مخذولون مَوكولون إلى أوليائهم من الشياطين وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٢٥٧) .

٦- قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٨) قد يُوهم التعارض مع قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٦) .

ذلك أنَّه في الآية الأولى نَفْيٌ قاطع لكون الله يأمر بالفحشاء، وذلك حَقٌّ لا ريب فيه، وأمَّا في الآية الثانية فيفهم البعض أنَّ فيها أمرًا للمترفين في القرى المراد إهلاكها بالفسق فيها فيكون ذلك سببًا في هلاكها .

وهذا الظاهر بالقطع غير مراد، وليس هذا معنى الآية، وإنما المعنى : إذا أردنا إهلاك قرية أمرنا مترفيها بما أمرنا به العباد من الطاعة والتقوى والعمل الصالح، فعصوا أمرنا ففسقوا وأغرقوا في المعاصي وتنكبوا طريق الصلاح والاستقامة فحق عليها القول الذي يحق على كل عاص بالعقوبة جزاء معصيته .

إن هذا هو الفهم الصحيح الذي لا يصح سواه، فالله تعالى يأمر بكل ما هو خير وينهي عن كل ما هو شر قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل :٩٠) .

وهو سبحانه يثيب على الطاعة سعة ورغدًا في الدنيا، فإذا تبدَّل حال أهل الطاعة وعملوا بالمعاصي حقت عليهم العقوبات، ظهر ذلك جليًّا في قصة سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ :١٥- ١٧) . ويتكرر المشهد في قوم آخرين : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (النحل : ١١٢- ١١٣) .

٧- قول الله تعالى : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ٤١) قد يوهم التعارض مع قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة : ٩١) ونظائر ذلك مَن آيات العذر في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح :١٧) .

ذلك أن الآية الأولى تأمر المسلمين بالخروج للجهاد في سبيل الله على كل أحوالهم من القوة أو الضعف، وكذلك النشاط والخفة أو الثقل، وأما الآيات الأخرى فترفع الحرج والإثم عن أصحاب الأعذار الذين يمنعهم ثقلهم من الخروج، وهما أمران متعارضان .

والجواب كما قرره العلماء أن الآية الأولى منسوخة بآيات العذر، أي بالآيتين الأخيرتين وما ماثلهما من آيات، وقد ذكر السيوطي هذه الآية، أي قوله تعالى : ﴿

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا... ﴾ الآية في المواضع التي عدَّها في المنسوخ من الآيات حكما وتلاوة[١] .

٨- قول الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل :٢٥) قد يوهم التعارض مع قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى... ﴾ (فاطر : ١٨) .

ذلك أنَّ الآية الأولى تنطق بأن الكفار المستكبرين الضَّالين يحملون يوم القيامة أوزارهم كاملة، وكذلك يحملون نصيبًا من أوزار الأتباع الذين أضلُّوهم، فأمَّا الآية الأخرى فتنطق بأن أحدًا لا يحمل وزر غيره، بل كل إنسان يحمل وزر نفسه فحسب.

والحق أنَّه لا تعارض ؛ لأنَّ ما أخبرت به الآية الأولى من كون الكفار يحملون من أوزار الأتباع الذين أضلوهم حقيقته: أنَّ هذه الأوزار للأتباع إنما هي أوزار الذين أضلوهم، فالكفار المضلون يحملون وِزْرَين، وِزْرَ ضلالهم في أنفسهم، ووِزْرَ إضلالهم لغيرهم، وهذا الأخير من جملة عملهم، غير أنَّ حَمْلَهم لأوزار الذين أضلوهم لا ينقص من وزر هؤلاء الأتباع شيئًا .

وهذا كما يكون في الأوزار يكون كذلك في الحسنات، فمن قَادَ غيره إلى خير، وكان سببًا له فيه، فله أجره وكذلك أجرُ من دعاه إلى الخير عند عمله به كل يأخذ أجره كاملًا، وبهذا يُمَهِّدُ الإسلام للسعي في الخير وقيادة الناس إليه، والتنفير من الشَّرِّ وتحذير الناس منه .

تلك قاعدة جاء بها الحديث النبوي الصحيح، فقد روي مسلم[٢] عن جرير بن عبد الله أن رسول الله قال : « مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسنةً فله أجرُهَا وأجْرُ مَنْ عَمِلَ بها بعده مِنْ غير أنْ ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً كان عليه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن – للسيوطي – في النوع السابع والأربعين : ٢/ ٧١٠ . على أنه يمكن القول بأن هذه الآيات محكمة ويكون المعنى : إما أن آية سورة التوبة شأنها شأن سائر التكاليف الشرعية محكومة بأصل من أصول التشريع وهو التكليف بالمستطاع المأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فيجاهد أصحاب الأعذار بما يستطيعون به من مال أو نصح ونحو ذلك ، أو أن الآية جاءت لتعظيم أمر الجهاد والتأكيد على القيامة به، وعدم تركه من الأمة مهما كان حالها في مجموعها .

(٢) أخرجه مسلم ك : الزكاة ، ب : الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة ، ٢/ ٧٠٤ ، (١٠١٧/ ٦٩) .

وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها مِنْ بعده مِنْ غير أنْ ينقص من أوزارهم شيء » . كما روي مسلم [١] أيضًا « مَنْ دَلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجرِ فاعلِه » .

٩- قول الله تعالى: ﴿ ... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (الإسراء : ٩٧) قد يوهم التعارض مع قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف :٥٣) وقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا *إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (الفرقان : ١١ - ١٤) .

ذلك أنَّ الآية الأولى في الإسراء نطقت بأنَّ الكُفار يحشرون يوم القيامة عُمْيًا لا يرون، صُمًّا لا يسمعون، بُكْمًا لا يتكلمون، بينما آية الكهف تَنطق بأنهم يرون، وآيات الفرقان تنطق بأنهم يسمعون ويتكلمون.

والحق أنه لا تعارض، وقد تعرض الطبري – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه القضية، وبَيَّنَهَا بيانًا شافيًا، قال رحمه الله تعالى عند تفسيره لآية الإسراء : « فإنْ قال قائل : وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا، وقد قال ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ فأخبر أنهم يَرون، وقال: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ .

فأخبر أنهم يسمعون وينطقون ؟ قيل : جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أخر غير حال الحشر، ويجوز أن يكون ذلك، كما رُوي عن ابن عباس في الخبر الذي حَدَّثَنيه عليٌّ بنُ داود، قال : ثنا أبو صالح، قال : ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ ثم قال : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ وقال : ﴿ سَمِعُوا لَهَا

(١)أخرجه مسلم ك : الإمارة ، ب : فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ، ٣/ ١٥٠٦(١٨٩٣/ ١٣٣) .

تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ وقال : ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أمّا قوله « عُمْيًا » فلا يرون شيئًا يَسُرُّهُم . وقوله «بُكْمًا» لا ينطقون بحجة، وقوله :
« صُمًّا » لا يسمعون شيئًا يَسُرُّهُم »[1] .

١٠- قول الله سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء : ١٤١) قد يوهم التعارض مع الآية التي بعدها : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء : ١٤٢) .

ذلك أنَّ صيغة الجمع في الآية الأولى دَلَّتْ على أنَّ ثمود كذبوا جموع المرسلين، بينما الآية الثانية تَدُلُّ على أنَّهم إنما كذبوا رسولًا واحدًا هو صالح الذي أرسل إليهم .

والحق أنه لا تعارض ثَمَّ ؛ لأنَّه لمَّا كانت دعوة الرسل واحدة وهي الدعوة إلى أصول الإيمان وفي مقدمتها الدعوة إلى توحيد الله تعالى، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ (النحل : ٣٦) .

أقول : لمَّا كان الأمر كذلك فإنَّ مُكَذِّبَ أيّ رسولٍ من رسل الله تعالى هو مُكَذِّب لجميعهم، فالتكذيبُ ليس مُنْصَبًّا على أشخاص الأنبياء في آحادهم، وإنما هو مُنْصَبٌّ على دعوتهم، ولذلك ورد النص في القرآن على الحكم بكفر مَنْ فَرَّقَ بين الأنبياء فآمن ببعضهم وكفر بالبعض، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (النساء : ١٥٠- ١٥١) .

١١- قول الله عز وجل: في بيان نوع العلاقة بالأبوين المشركين : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان : ١٥) قد يوهم التعارض مع قوله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة : ٢٢) .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – لابن جرير الطبري – مجلد ٩- ١٥ ص ١٦٧- ١٦٨ .

ذلك أن الآية الأولى تُصرِّح بِبرِّ الأبوين المُشْرِكَيْن، ومن صور هذا البرِّ أن يصاحبهما الابن في الدنيا معروفًا غير أنه لا يطيعهما فيما يدعوانه إليه من الشرك ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بينما الآية الثانية تنهى عن موادة الكفار الذين يحادُّون الله ورسوله ولو كانوا قرابات لصيقة بها في ذلك الآباء .

والواقع أنه لا تعارض بين الآيتين بل الجمع بينهما ميسور لا تكلف فيه، ذلك أن المصاحبة بالمعروف لا يشترط أن تكون مبنية على موادة ؛ بل هي أعم منها، فالإنسان يتأتي منه أن يسدي المعروف إلى من يواده ومن لا يواده، أما الموادة فهي أخص من ذلك ؛ لأنها ميل قلبي وحب يبطنه الإنسان لمن يواده، والنهي في الآية عن الموادة المشعرة بالمحبة شامل لجميع الكفار مهما كانت درجة قرابتهم ؛ لأنها تتعارض مع الإيمان، وكذلك تقديم حق الله تعالى في معاداة من يكفر به، أما مصاحبة الوالدين بالمعروف فهو مما يبذل للوالدين مع كفرهما ؛ لأن ذلك من أفعال الجوارح لا من أفعال القلوب .

ودليل ذلك ما رواه البخاري [١] عن عروة عن أسماء قالت : قَدِمَتْ أمي وهي مشركة – في عهد قريش ومُدَّتِهم، إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم – مع أبيها –، فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إنّ أمي قَدِمَتْ وهي راغبة أَفَأَصِلُهَا قال : « نعم صِلِي أُمَّك » .

وفي رواية أخري للبخاري [٢] عن عروة كذلك، قال : أخبرتني أسماء ابنة أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت : أتتني أمي راغبةً – في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسألت النبي صلى الله عليه وسلم آصِلُهَا ؟ قال : « نعم » . قال ابن عُيَينة : فأنزل الله تعالى فيها : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨) .

---

(١) أخرجه البخاري ك : الأدب ، ب : صلة المرأة أمها ولها زوج ١٠/ ٤١٣ (٥٩٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري ك : الأدب ، ب : صلة الوالد المشرك ١٠/ ٤١٣ (٥٩٧٨) .

١٢ – قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهَّ ...﴾ (الزمر : ٥٣) قد يوهم التعارض مع قوله سبحانه : ﴿ ... وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (غافر : ٤٣) .

ذلك أن الآية الأولى فيها تصريح بأنَّ المسرفين على أنفسهم بالمعاصي ليس لهم أن يقنطوا من رحمة الله، بينما الآية الثانية تقطع بكون المسرفين هم أصحاب النار.

والواقع أنه لا تعارض، والأمر يكمن في تفسير الإسراف : فإن الإسراف كما يكون بالكفر يكون بكثرة المعاصي التي ليس من بينها الكفر، فمن الأول قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنبياء : ٩) .

ومن الثاني قول الله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٧) .

وعليه فالآية الأولى تدعوا إلى عدم القنوط من رحمة الله في حق المسرفين على أنفسهم بالمعاصي دون الكفر لكن بضميمة التوجيه إلى التوبة والحث عليها وعدم الاغترار بالله، بدليل أن تمام السياق بعد الآية جاء في ذلك : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ .. ﴾ (الزمر :٥٤) .

وأما الآية الثانية فتبين أن المسرفين بالكفر هم أصحاب النار، فالله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء، وعليه فلا تعارض ولا تناقض.

١٣ – قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ (القمر :٢٩) قد يوهم التعارض مع قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف :٧٧) .

ذلك أنَّ الآية الأولى تصرح أنَّ من عقر النَّاقة هو واحد من قوم ثمود، بينما الآية الثانية تنطق بأن القوم هم الذين عقروها – والقوم أكثر من واحد – ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ (الشمس : ١٤) .

والواقع أنه لا تعارض فالقوم كلهم قد تمالئوا وتآمروا على عقر الناقة : فانبعث أشقى هؤلاء القوم – مدفوعًا بسعار الكفر – فعقرها، فخرت صريعة، فأسند الفعل إليهم جميعًا؛ لأنه تم برضاهم وتحريضهم .

١٤- قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح : ٢٧) قد يوهم التعارض مع قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ (هود :٣١) .

ذلك أن الآية الأولى ذكرت أن نوحًا عليه السلام – من خلال قوله : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ ﴾ كان يعلم ما يؤول إليه أمر الأولاد من الفجور والكفر قبل ولادتهم، وهو من علم الغيب، بينما الآية الثانية تنطق على لسانه بأنَّه لا يعلم الغيب .

والحق أنه لا تعارض، فإنَّه – عليه السلام- قد قال في الآية الأولى ما قاله من كفر الذُّرية المتتابعة من قومه بإعلام الله إياه، لا بعلمه من عند نفسه، وقد ورد التصريح في ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ (هود : ٣٦) .

١٥- قول الله سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة :٢٢- ٢٣) قد يوهم التعارض مع قوله عز وجل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام :١٠٣) .

ذلك أن الآية الأولى تفيد أنَّ أَجَلَّ نعيم المؤمنين في الجنة رؤيتهم رب العزة تبارك وتعالى، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن صُهَيْبٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ قال : يقول : الله تبارك وتعالى تريدون شيئًا أزيدكم فيقولون : ألم تُبَيِّضْ وجوهَنا ألم تُدْخلْنا الجنَّةَ وتُنَجِّنَا من النَّار، قال : فيَكْشِفُ الحِجَاب فما أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إليهم من النَّظر إلى ربهم عز وجل »[1] .

ووقوع هذه الرؤية فرعٌ عن إمكانها، بينما الآية الثانية تَنُصُّ على عدم إمكان رؤية الله تعالى .

والحقيقة أنه لا تعارض بين الآيتين، وبيان ذلك من وجهين:

الأول : أنَّ نفي الرؤية الوارد في آية الأنعام إنما هو في الدنيا، وأما إثباتها الوارد في سورة القيامة فذلك في الآخرة من جملة نعيم المؤمنين، فالجهة مُنفكة، فلا تعارض ولا تناقض .

---

(١) أخرجه مسلم ك : الإيمان ، ب : إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/ ١٦٣ (١٨١/ ٢٩٧) .

الثاني : أن المنفي في سورة الأنعام هو الإدراك الذي يفهم منه الإحاطة بكُنه المدرك، وذلك غير وارد على الإطلاق بالنسبة لله عز وجل الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أما مطلق الرؤية فلا تدل آية سورة الأنعام على نفيه من جهة، وقد أثبتته سورة القيامة من جهة أخرى، بل دلت عليه كذلك الأحاديث الصحيحة :

فقد أخرج البخاري [١] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة قال: « هل تُمَارون في القمر ليلة البدر [٢] ليس دونه سَحَاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله . قال: « فهل تُمَارون في الشمس ليس دونها سَحَاب ؟ » . قالوا: لا قال : « فإنكم تَرَوْنَه كذلك » .

وعلى هذا مضى إجماع المسلمين، لم يشذ عنهم إلا من لا يعتد برأيه لمخالفته الدليل الصحيح من مفهوم القرآن وصريح السنة المطهرة.

سابعًا : ما يُوهم التعارض بين بعض الآيات وبعض الأحاديث، وكيفية إزالة هذا التعارض :

سبق أنْ قلنا في مقدمة هذا الموضوع، وفي بيان دواعي دراسته : إنَّ تسمية العلماء لهذا المبحث – من مباحث علوم القرآن – تسمية دقيقة محررة فقد أطلقوا عليه عنوان : « موهم الاختلاف » فالتعارض هنا مُتَوهَّمٌ وليس حقيقة ؛ لأنك – بحمد الله تعالى – غيرُ واجدٍ أبدًا بين آيات كتاب الله تعالى تعارضًا حقيقيًا وهذه المقولة نؤكد عليها هنا كذلك فيما يتعلق بالقرآن مع السنة المطهرة، فلست واجدًا – بحمد الله تعالى – تعارضًا حقيقيًا بين آيات القرآن وما صَحَّ وثبت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّ السنة وحي الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فهي من نفس المصدر الذي ورد منه القرآن، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم : ٣- ٤) .

وسنعرض هنا لبعض الآيات التي يتوهم معارضتها لبعض الأحاديث، ونبين كيفية إزالة هذا التَّعارض المُتوهم، فمن ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري ك : الأذان ، باب : فضل السجود ٢/ ٢٩٣ (٨٠٦) .

(٢) يعني :هل تَشُكُّون في رؤيته ليلة اكتماله ووضوحه .

١ – قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة : ٦٧) فقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قد يوهم التعارض مع ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم من إصابته في غزوة أحد .

فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه – يشير إلى رَبَاعِيته – اشْتَدَّ غَضَبُ الله على رَجُلٍ يَقتُلُه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله ».

كما أخرج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « اشْتَدَّ غَضَبُ الله على مَنْ قتَله النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الله، اشْتَدَّ غَضَبُ الله على قَومٍ دَمَّوْا وجَه نبي الله صلى الله عليه وسلم ».

كما أخرج عن أبي حازم أنه سمع سَهْلَ بنَ سَعد، وهو يُسأَلُ عن جُرْحِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : أما والله إني لأعرف من كان يَغسل جُرْحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ كان يَسْكبُ المَاء، وبما دُووِي، قال :

« كانت فاطمةُ – عليها السلام – بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم تَغْسِلُهُ، وعَلِيٌّ يَسْكُبُ المَاءَ بالمِجَنِّ، فلمَّا رأت فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يَزيدُ الدَّمَ إلا كثرةً أخذت قطعةً من حصير، فأحرَقَتْها وألصَقتها فاسْتَمسَك الدَّمُ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتَه يومئذٍ، وجُرِحَ وجهُهُ، وكُسِرَتْ البَيْضَةُ على رأسِه » (١).

ذلك أنَّ الآية تفيد أن الله تعالى عصم نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينال منه الكفار، وأمَّا الأحاديث فقد أفادت بأنهم قد نالوا منه يوم أُحُد.

والحقيقة أنه لا تعارض بين الآية والأحاديث، وما تُوهِّم من ذلك بينهما يمكن الجواب عنه بجوابين، أولهما: أن ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد كان قبل نزول الآية، فغزوة أُحُد كانت في السنة الثالثة من الهجرة، وأما سورة المائدة فهي من أواخر ما نزل بالمدينة، فقد أخرج الحاكم (٢)

---

(١) الأحاديث الثلاثة : أخرجها البخاري ك : المغازي ، ب : ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أحد ، ٧/ ٣٧٢ (٤٠٧٣، ٤٠٧٤، ٤٠٧٥) على التوالي .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣١١، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: «حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا جُبَيْرُ تَقْرَأُ الْمَائِدَةَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: «أَمَا إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ، فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ».

الثاني : أنه عند عدم اعتبار زمان النزول للآية بذاتها، وأنها قد تكون نزلت قبل ذلك، فالمراد من العصمة في قوله : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ العصمة من القتل خاصة، فلا يمنع ذلك ما يقع من الأذى دون القتل، وفيه تنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء، فالأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل [١] .

وهذا التوجيه الثاني واضح، وأنَّ العصمة إنما هي من القتل، فقد أخرج الترمذي[٢] عن عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسَه من القُبَّة، فقال لهم : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » .

٢- قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٣٢) قد يُوهم التعارض مع ما ورد في الحديث الصحيح من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « سَدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، فإنَّه لا يُدْخِلُ أحدًا الجنَّةَ عَملُه » . قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال :

« ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة » . أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها [٣] .

وفي رواية لمسلم [٤] من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عملُهُ » . قال رجل ولا إيَّاك يا رسول الله ! قال:

---

(١) البرهان في علوم القرآن – بدر الدين الزركشي : النوع الخامس والثلاثون « موهم المختلف » ٢/ ٧٧، والحديث عن سعد بن أبي وقاص ، أخرجه أحمد في مسنده ١/ ١٨٥ (١٦٠٧) ، والترمذي ك : الزهد ، ب : ما جاء في الصبر على البلاء ٤/ ٥٢٠ (٢٣٩٨) . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي ك : تفسير القرآن ، ب : ومن سورة المائدة ٥/ ٢٣٤ (٣٠٤٦) ، وقال : هذا حديث غريب ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٣، ووافقه الذهبي . وقال الترمذي : روى بعضهم هذا الحديث عن الجريري عن عبد الله بن شقيق قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس ولم يذكروا فيه عن عائشة .

(٣) أخرجه البخاري ك : الرقاق ، ب : القصد والمداومة على العمل ١١/ ٢٩٤ (٦٤٦٧) .

(٤) أخرجه مسلم : ك : الرقاق ، ب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى ، ٤/ ٢١٦٩

« ولا إيَّاي إلا أن يتغمدني الله برحمة ولكن سَدِّدوا » .

وفي رواية لمسلم [١] عن جابر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا يُدْخِلُ أحدًا منكم عملُهُ الجنَّةَ، ولا يُجِيُرهُ من النَّار، ولا أنا إلا برحمة من الله».

ذلك أنَّ الآية تصرح بأنَّ دخول الجنة إنما يكون بالأعمال الصالحة، وأما الأحاديث فإنها تصرح بأن العمل الصالح ليس سببًا في دخول الجنة، وإنما ذلك بمحض فضل الله تعالى ورحمته .

والحقُّ أنه لا تعارض ولا تناقض بين الآية والأحاديث، فقد أجاب العلماء على ذلك أجوبة شافية:

قال الزركشي رحمه الله تعالى : « ونقل عن سفيان وغيره كانوا يقولون النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال[٢] ويدل له حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنَّ أهلَ الجنَّة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضلِ أعمالهم » [٣] .

ويشرح شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر الأمر بعبارة أكثر تفصيلًا، فينقل عن ابن بطَّال قولَه في شرح الآية : « والتقدير : ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول، ثم قال : يجوز أن يكون الحديث مفسرًا للآية، والتقدير: ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم ؛لأن اقتسام منازل الجنة برحمته، وكذا أصل دخول الجنة هو برحمته حيث أَلْهَمَ العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته وفضله، وقد تفضَّلَ عليهم ابتداء بإيجادهم ثم برزقهم ثم بتعليمهم » [٤] . هذا والله أعلم

(٧١/٢٨١٦) .

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق ٤/ ٢١٧١ (٧٧/٢٨١٧) .

(٢) البرهان في علوم القرآن – ٢/ ٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذي ك : صفات الجنة ، ب : ما جاء في سوق الجنة ٤/ ٥٩١ (٢٥٤٩) .

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري : ١١/ ٢٩٥- ٢٩٦ عند شرحه حديث (٦٤٦٨) .

فهرس

الموضـــــــــــــــــوع	صفحة
أولًا : دواعي دراسة هذا الموضوع :	١٦٤
ثانيًا : المقصود بـــ«مُوهِم الاختلاف » :	١٦٤
ثالثًا: أصل ما ورد في موهم الاختلاف:	١٦٩
رابعًا : أسباب ما يُوهم الاختلاف في القرآن :	١٧٢
١- وقوع ما أخبر عنه في الآيات على أحوال مختلفة	١٧٢
٢- اختلاف الموضوع:	١٧٤
٣- الاختلاف في جهتي الفعل:	١٧٤
٤- الاختلاف في الحقيقة والمجاز :	١٧٥
٥- الاختلاف بوجهين واعتبارين :	١٧٦
اختلاف ولا تعارض:	١٧٧
الفهرس	١٩٤